من تاريخنا العلمي

طالب علم ...

للأستاذ علي الطنطاوي

قال (محمد بن سعيد) :

— ويك اتق الله يا أبا فلان . إنك لتوشك أن تقتل هذا الرجل الصالح وتبوء والله بدمه . ويك اتق الله ، لا تطرده من (فندقك) فإنه غريب نائي الديار ، قطع سباسب وبحاراً ، وجاب ما بين المشرقين . . .

قال : أبقيّ بن مخلد[١] جاب ما بين المشرقين ؟

قال : نعم ، وهل تراني عنيت غيره ؟ إنه حاجتي إليك ، وما سألتك حاجة قبلها ، أفلا تقضيها لي ؟ إنه شيخ جليل القدر يحمل الحديث ويروي السنن ، أفندعه يموت على قارعة الطريق ؟

قال : وما أصنع به أنا ؟ لقد آويته في فندق عامين اثنين ، لا آخذ منه مالاً ولا أرزؤه شيئاً ولا أعصي له أمراً ، أفيكون جزائي أن أجيف عليه نفسي حتى يموت ، فيخرج من فندق محمولاً إلى القبر فيتشاءم الناس بالفندق فيتحامونه فأفلس ؟

إنه مريض أنهكته الأوجاع وأدنفته الحمى ، ولقد أعجز نطاريس الأطباء ، وما أراه إلا ميّتاً العشية أو غداة الغد . . . فارحموني ، أنقذوني منه ، ليس لي به حاجة . . . قبحها الله ساعة أكريته فيها هذا البيت ، لقد كانت ساعة ما حضرها ملَك ...

قال : اربع عليك أيها الرجل فإنك في نعمة لو عرفت قدرها لقطّعت الليل بحمد الله عليها . إنك لا تدري أيّ خير ساقه الله إليك ، وأي أجر كتبه لك ، فأقم نفسك في خدمته ، وارجُ وجه الله ، أطمعْ لك بالجنة

قال : إني والله لفي بليّة لو عرفت مداها لما لمتني على الجزع منها . إنك لا تعرف هذا الشيخ أي رجل هو ؟ أأقول لك : إنه لم يبت عندي ليلة واحدة حتى خرج بخلقان بالية ومزق مخرقة وركوة وعصا ليسأل الناس . . . مالك تضحك من كلامي ؟ . . . أتهزأ بي يا ابن سعيد ؟

قال : لا . ولكنك لا تدري ما شأن هذا الرجل

قال : وإنّ له بعدُ لشأناً ؟

قال : وأي شأن ؟ هذا رجل هجر جنّات الأندلس ورياضها ، وعيونها وأنهارها ، ومكانة له فيها سامية ، وجاهاً له عريضاً ... وفارق أهلاً فيها وصحباً ، وعشيرة كبيرة ، وأموالاً كثيرة ، وذهب يخوض اللجج والبحار ، ويجوب السباسب والقفار ، ليقدَم بغداد ، لا طمعاً بجاه يناله ، أو مال يحصله ، أو صديق يزوره ، أو امرأة يخطبها ، أو لذّة يطلبها ، ولكن رغبة في العلم وحباً للحديث ، وشوقاً إلى لقاء أبي عبد الله !

فلما سمع الفندقي اسم أبي عبد الله انتبه وتبدلت حاله ، وطفت على وجهه خيالات من الحب العظيم ، والإجلال الكبير ، الذي يحتفظ عليه قلبه لهذا الإمام ، وقال بلهجة أرق ، ونغمة أعذب ، قد ذاب فيها حقده على بقيّ بن مخلد في محبته لأبي عبد الله

— أتقول إن الرجل قدم من الأندلس ليلقى أحمد بن حنبل ؟

— نعم

— ياله من شرف في الدنيا والآخرة ! وهل لقيه ؟ ألا تخبرني كيف لقيه ؟

قال : إنه نزل عليك في هذا الفندق فألقى فيه متاعه ، وذهب يطلب أبا عبد الله ؛ وكان ذلك أيام المحنة والناس لا يجرؤون على ذكر اسمه ، وأبو عبد الله منفرد لا يلقاه أحد إلا أخذته عيون السلطان فناله أذى شديد . . . فلما علم الرجل بذلك ناله من الغمّ ما الله عالم به ، فأمّ المسجد الجامع في الرصافة يسمع من المحدثين فما زال يمرّ بالحلق حتى انتهى إلى حلقة نبيلة ، فوقف عليها ، وكنت أول من رأى زيّه الغريب ، فسلمت عليه أؤنس غربته ؛ فسألني : من هذا الشيخ ؟

قلت : يحيى بن معين ، وكان يعرفه ، ومن لا يعرف يحيى ابن معين ؟ فوقف ساعة ، ثم لمح فرجة قد انفرجت فقام فيها ، وكان الشيخ يكشف عن الرجال[١] فيقوي ويضعف ، ويزكي ويجرح ، فقال :

(١) انظر الصفحة (٧٩) من مختصر طبقات الحنابلة طبع دمشق

(١) أي رجال الحديث ، وأولئك لعمري هم الرجال .

— يا أبا زكريا — رحمك الله — رجل غريب نأى الديار ، أردت السؤال ، فلا تستخفني

فقال الشيخ : قُلْ

فجعل يسأل عن بعض من لقي من أهل الحديث — وكان قد لقي منهم خلقاً كثيراً — فبعضاً زكّى وبعضاً جرح ، فسأله عن هشام بن عمّار وكان قد أكثر الأخذ عنه ، فقال الشيخ :

— أبو الوليد هشام بن عمار صاحب صلاة دمشق ، ثقة وفوق الثقة ، لو كان تحت ردائه كبر ما ضرّه شيئاً لخيره وفضله

فتصايح أهل الحلقة :

— حسبك يرحمك الله حسبك ، غيرك له سؤال

فقال وهو واقف على قدم :

— أكشفك عن رجل واحد : أحمد بن حنبل ؟

فما قالها حتى جمد الناس وعلت الشيخ كآبة ، ونظر إليه متعجباً كأنه يقول له : أعن أحمد يسأل أحد ؟ وهل تجرؤ على ذكره ؟ وكأن الشيخ قد خالطه شيء من الجزع ، ثم غلب عليه إيمانه فلم يعد يبالي السلطان وغضبه ، وقال للسائل :

— من أين أنت أيها الرجل ؟ نحن نكشف عن أحمد ابن حنبل ؟

وسكت الشيخ لحظة ثم قال بجرأة عجب لها الناس ولبثوا شاخصين ، ينظرون إلى الشيخ يخافون أن تتخطفه جلاوزة السلطان . . .

قال الشيخ :

— ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم

* * *

ثم إن الرجل ذهب يستهدي الناس إلى دار أبي عبد الله فمنهم من يعرض عنه خشية أن يكون عيناً للسلطان ، ومنهم من يجرؤ فيمشي معه خطوات ... حتى انتهى إلى الدار

فنال الإعجاب من نفس الفندق كل منال ، وسأله :

— أتقول إنه زاره في منزله أيام محنته ؟

قال محمد بن سميد : نعم . قرع عليه الباب فلما فتح له قال :

إني رجل غريب أتيتك من مكان سحيق

قال أبو عبد الله : مرحباً بك . أين بلدك ؟

قال : الأندلس

قال : أفريقيّة ؟

قال : لا ، أبعد من ذاك ، أركب البحر من أفريقية إلى بلدي

قال : لا جرم إنه بعيد ، فما حاجتك ؟

قال : أسمع منك ، وأروي عنك

قال : ولكني كما رأيت وعلمت ، لا ألقي أحداً ، ولا يدعون أحداً يلقاني ، ولست آمن عليك الأذى إذا أنت أتيتني

قال : ما كنت لأبالي في سبيل الأخذ عنك أذى ولا عذاباً

قال : فإن هم منعوك ؟

قال : أحتال بحيلة ، آتيك بزي السؤال فأصيح : الأجر يرحمك الله ، فتفتح لي وتحدثني

قال : على ألاّ تظهر في الحلَق فيعرفوك

قال : على ألا أظهر

فكان يفعل ذلك ، وكنت تظنه يخرج فيسأل الناس

فعاد الفندق يسأل متثبتاً ، وقد كبر الرجل في عينيه حتى كأن الذي تحتويه غرفته ملك أو وزير ، عاد يسأل متثبتاً :

— إذن فهو من (أصحاب) أحمد بن حنبل

قال : نعم ، ولبث على ذلك حتى رفع الله المحنة وولى الأمر (المتوكل) فأحيا المذهب الحق ، مذهب أهل السنة ، وأمات البدعة ، وجزى الله أحمد بما صبر ، فكان كما تعرف وأعرف إمام الأمة ، وأيد الله به الدين كما أيده بأبي بكر يوم الردة فصار يعرف لهذا الرجل حقه ويقول لأصحابه : (هذا يقع عليه اسم طالب العلم)

قال الفندق :

— جزاك الله يا ابن سعيد خيراً ، فقد عرفتني حقه ، فهلم بنا إليه ...

* * *

كان بقيّ بن مخلد الأندلسي وحيداً في غرفته ، يتقلب من الألم ، ويتلوى من الحمى ، قد طحطحه المرض ، وهدته الأوجاع فما أبقت منه إلا هيكلاً كالقناة الجوفاء يتردد فيها الهواء ، ولما يشكو من الحنين إلى بلده ، والتشوق إلى أهله أشد عليه من كل ذاك

ولم يكن في البيت إلا لبد اضطجع عليه ووسادة ألقى عليها رأسه ، وكتبه مبثوثة من حوله ما يدعها ، إذا أدركه انتباه نظر

فيها ، فإذا غاب عنه من الوجع عقله تركها في مكانها ، فلما دخلا عليه ألفياه يقرأ في صحيفة في يده . فجلسا ساعة يؤنسانه فما شعرا إلا ضجّة تدنو حتى حسباها قد استقرت في الفندق ، فنظرا من الشباك فإذا الرحبة والطرق التي تؤدي إليها ما فيها موطئ قدم خلا من إنسان . فاضطرب الرجل ونزل يسأل أن ماذا جرى ؟ فما أحسّ إلا الناس يقولون : لقد أتى ... هو في الطريق ... فأيقن أنه الخليفة ، ولكنه رأى موكب الخليفة غير مرة فما رأى مثل اليوم ... ودنا من شيخ واقف في أطراف الناس فسأله من القادم ، وأين يذهب ؟

فقال : إنه أبو عبد الله الذي لا يمشي إلى الخليفة ، قادم ليعود مريضاً في هذا الفندق . فصاح الفندقي :

— أبو عبد الله قادم إلى فندقي ، أبو عبد الله ؟ وطفق يصيح ويثب لا يدري ما ذا يصنع وماذا يقول ، وما يحفله أحد لأن الناس يتشوفون إلى الطريق ينظرون ، وقد احتشدوا فيها فما بقي بزاز في دكانه ، ولا تاجر في سوقه ، ولا طالب علم في حلقته ، ولهم دويّ وجلبة ...

وصحا الفندقي على نفسه ، فإذا هذا البحر ينشق بقدرة الله ، وإذا الخلق يسكتون حتى كأن على رؤوسهم الطير ، ويبدو الإمام ومن حوله طلبة العلم قد احتشدوا من جهات بغداد كلها . بغداد العظيمة التي يسكنها مليونان وبأيديهم قراطيسهم وأقلامهم يكتبون كل كلمة يقولها فانتهى الإمام إلى الغرفة ، فوقف على المريض فقال له :

— يا أبا عبد الرحمن ! أبشر بثواب الله ، أعلاك الله إلى العافية ، ومسح عنك بيمينه الشافية

فتناقل القوم ما قال فكتبوه

* * *

ومرّت أعوام بعد ذلك وأعوام ، والناس يذكرون هذا اليوم المشهود . أما الفندق فغدا منذ تلك الزيارة محط رجال العلماء والكبراء ، ودرت على صاحبه أخلاف الرزق ، وأما بقيّ فقد شفاه الله وعاد إلى الأندلس فملأها علماً ...

علي الطنطاوي

ســــاراكينوس

SARACENUS

للأستاذ محمد عبد الله العمودي

جاء في العدد ٣٢٤ من هذه الرسالة الماليـة ، كلمة بعنوان « يا رسول الله » ، (لأستاذ جليل) ينم عليه قلمه !

استهلها بآية من آياته ، وبينة من بيناته ، وتلك قوله :

« إن الدهر قد جار على قوم عرب !! »

ثم نقل من (التنبيه والإشراف) للمسعودي هذه النبذة :

« كانت ملوك الروم تكتب على كتبها من فلان ملك النصرانية ، فغير ذلك نقفور ، وكتب (ملك الروم) وقال هذا كذب ، ليس (أنا) ملك النصرانية ، أنا ملك الروم ، والملوك لا تكذب ، وأنكر على الروم تسميتهم العرب (ساراقينوس) تفسير ذلك : عبيد سارة ، طعناً منهم على هاجر وابنها إسماعيل ، وقال : تسميتهم عبيد سارة كذب . والروم إلى هذا الوقت (يعني سنة ٣٤٥) تسمي العرب (سارقينوس ...) اه

وأستاذنا الجليل ، وهو « سباق غايات ، وصاحب بينات » كان حقاً عليه أن يقف لحظة أمام هذه (الكلمة) فيعالجها معالجة يردها إلى أصلها ، أو يقول قولاً في فصلها ؛ إذ هذا هجّيراه وديدنه في كل ما يرقمه قلمه البارع في شتى « مجالاته » ...! ولكنه لم يفعل بل تركها تجري في عبارة المسعودي غامضة الوضع ، عسيرة الفهم ، ملحقةً بذلك التفسير الذي يغلب على الظن أن المسعودي فسره تفسيراً خياليًّا بقوله : « عبيد ساره » أخذاً من الهجاء الأول « سارا » من كلمة : « ساراقينوس » ، والدليل على بطلان هذا الكلام عن المسعودي ، وإن كنا لا نستبعد أن لوجود « سارا » أو « سارّه » في بنية هذه (الكلمة) من أمر ، قوله : « وقال « أي نقفور» تسميتهم عبيد ساره كذب » لأن ملكاً من ملوك هذه المصفّرة لا يمكن بحال من الأحوال أن يجعل من نفسه مدافعاً عن العرب ، أو يعنى بمثل هذا التعليل وغاية ما في الأمر أن للخيال المسعودي أثراً في هذا ، فمن وجود « سارة » في هذه الكلمة يتبادر إلى ذهن « المؤرخ » الأسطورة الخرافية